موسى بن ميمون[1]

حكيمٌ في حكمته رسالةٌ لابناء العصر الحديث

في عصر مزقتهُ الحروب ، وساد فيهِ رجال الدم والحديد ، نشأ حكيمٌ من اعظم حكماء التاريخ هو موسى بن ميمون المولود في قرطبة قبل ثمانية قرون

كان يهوديًّا ورعاً ذكر ابناء قومهِ بمشترعهم الاول، وكان حكيماً طالما خاض في اغوار الفلسفة الارسطوطالية ، وكان انسانيًّا يجد نصيباً من الخير في كل ثقافة ، وكان طبيباً خاصًّا لبلاط صلاح الدين ولكنهُ مع ذلك لم يصرف المرضى المساكين عن بابهِ . فمن الطبيعي ان يقرن قومهُ اسمهُ الى اسم موسى الكليم مشترعهم العظيم وزعيمهم الذي خرج بهم من مصر الى ارض الميعاد

اطلَّ موسى بن ميمون على الحياة ، اذ كانت اليهودية مضطهدة من المسيحيين والمسلمين على السواء ، بل كانت في خطر من ان تفقد ذاتيتها وتنحجر في مذهب جامدٍ ضيق النطاق . فبعث في ابناء قومهِ نشاطاً جديداً ، وكسب لهم في مصر وبلاد العرب ، مكانة عالية ، بفضل خلقه القويم وذهنهِ الجبَّار ، فبسَّط لهم مبادىء شريعتهم الموروثة وفسَّر لهم ديانتهم القديمة تفسيراً جديداً نبيلاً

ولكن حسَّهُ المنطقي السليم ، وبحثهُ الجريء عن الحقيقة ، حملاهُ على الخروج من نطاق مذهب واحد الى رحاب الانسانية والحكمة . فقد ضاع الريبَ والاسرار التي تساور ذهن الانسان وقلبهُ في جميع العصور . ومع ان ابناء العصر الحديث ، من غير الطائفة الاسرائيلية لا يعرفون عنهُ الا قواعد الاحسان الثمان ، الا ان تفكيره كان ذا اثر عميق في القرون الوسطى التي نشأ منها عصرنا الحديث

فمن الطبيعي ان يحتفل اليهود وغير اليهود بالذكرى المئوية الثامنة لمولدهِ في هذا العام ، ابتداء من ٣٠ مارس ولكن من المصادفات التي يؤسف لها ان نرى العالم اليوم مضطرباً كما كان في عصر بن ميمون وان نشاهد بوادر الحروب والصعوبات الدولية تبدو كما بدت في ايامه . ومما تجدر ملاحظته ان روح ابن ميمون ، بل نظرياته ذاتها ، ما زالت ثابتة قوية كما كانت عليهِ منذ ثمانمائة سنة خلت

***

لقد مرت بابن ميمون في حداثتهِ تجاريب مُرَّة لا تختلف كثيراً عن تلك التي يجتازها الشباب الذي نشأ غداة بداية العصر المضطرب الذي نعيش فيه . رأى نور الحياة عشية عيد الفصح من عام ١١٣٥ ، في مدينة قرطبة القديمة ، التي كان يحكمها وتتنكر الخلفاء وكانت الثقافة الاسلامية قد تمت

(١) نشر اصل هذه المقالة في مجلة النيويورك تيمس بقلم كاتب اميركي معروف اسمه دوفوس Duffus وقد تفضل فنقلها لنا الدكتور الفريد يلوز المحرر والمترجم بوزارة المالية وسكرتير جمعية الباحث التاريخية الاسرائيلية المصرية]

وازدهرت ، فبلغت شأوها من العظمة ، حتى بزّ العربُ معاصريهم من علماء المسيحية ، خصوصاً في الطب والعلوم والفنون وتفوقوا عليهم تفوقاً كبيراً . نشأ ابن ميمون في هذا الوسط الخصب في ظل تسامح العرب نحو اليهود ، ذاك التسامح الذي مهد لليهود فرصة الانتفاع من علوم العرب ، فعمت الفائدة كليهما . كان والد موسى من العلماء المشار اليهم بالبنان ، محترماً بين رجال عشيرته ، لما تحمل به من العلوم الدينية وادب الكتابة . وتلقى الولد علومه على يدي ابيهِ فاظهر نبوغاً في الدرس والتحصيل . (لقد ذكر بعض المؤرخين انهُ كان كسولاً في صباه لكن هذا الادعاء يكذبهُ الواقع)

وما كاد موسى يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، حتى انقضى الحلم اللذيذ . اذ نشبت في قرطبة اضطهادات قامت بها شيعة الموحدين النازحة من افريقيا الشمالية (المغرب الاقصى) والتي قضت قضاءً مبرماً على عهد قرطبة الزاهر ، وحصدت في طريقها الفنون وروح التسامح والاخاء

لم ير ميمون منذوحة عن الرحيل ، محافظة على حياته وحياة اولادهِ . وها هي الاسرة تحيا مدة اثنتي عشرة سنة تارة في الاندلس ، وطوراً في المغرب الاقصى ، دون ان تستقرَّ في موطن واحد . وقد اضطر موسى خلال تلك المدة ان يهمل دراسته ، لكثرة اسفاره . لكنهُ كان اذا استقر في مدينة ، عمد الى تحصيل العلم آونة بعد اخرى ، وقد تناول مصنفاته خلال تلك المدة المضطربة وهو تقويم عبري ما زال مستعملاً حتى الآن كمرجع من المراجع ثم اعقبه ببحث في علم المنطق

هاجرت الاسرة الى فاس في سنة ١١٦٠ فقضت فيها خمس سنوات . وكانت تلك الأيام اشد ايام ميمون بن يوسف (والد موسى) قسوة وحيرة . اذ ان فاس ظلت ردحاً من الزمن مركزاً للموحدين ولنفوذهم . اعتنق اكثر اليهود الدين الاسلامي خشية على حياتهم . وقد قيل ان ميمون واسرته حذوا حذوهم . لكن كليهما دفعا تلك التهمة في كتاب ارسله موسى الى احد الحاخامين الذين الصقوا بهِ زوراً هذه الوشاية . وقد امتاز هذا الكتاب بقوة البيان والبلاغة ، فأدى نشرهُ الى احياء روح الشجاعة في يهود المغرب الاقصى

كادت الاضطهادات ان تودي بحياة موسى بن ميمون . فأخذت الاسرة تبحث عن موطن جديد . ذهبت اولاً الى فلسطين . فما كاد يستقر بها المقام حتى شدت رحالها الى الفسطاط ، اذ لم تستطع الحياة في بلاد خربتها الحرب القائمة بين العرب والصليبيين

قضى موسى بن ميمون المدة الباقية من حياته في مصر . وكم لاقى من الصعاب في اوليات سني زوجه اليها . فقد توالى عليهِ مصابان كاد ينوء تحت حملهما . مات اخوه الاكبر داود غريقاً في المحيط الهندي ، اثناء سفره في مهمة خاصة بتجارة الاحجار الكريمة التي كان يزاولها ، ولم يمض زمن طويل حتى لحق الاب بابنهِ . وقد ظل موسى مريضاً سنة كاملة من جراء احزانه

عاد شيئاً فشيئاً الى الاهتمام بشؤون الحياة . فانكب على دراسة الطب . وما كاد يتمها حتى شرع في مزاولة مهنته ، معتمداً على علوم العرب وعلمه ذكائه ومواهبه في تطبيقها وتعديلها . لم ينقطع

موسى عن التطبيب ، بل ظل يقوم به ، اولاً بين اليهود ، ثم احرز شهرة بين غيرهم من ابناء مصر ، حتى ذاع صيته فبلغ السلطان صلاح الدين بن ايوب . وقد دلت الاسانيد التاريخية على أن موسى بن ميمون كان طبيباً يشار اليه بالبنان . لكن هناك باعثاً آخر حمله على مزاولة الطب . وهو انهُ كان زعيماً دينيًّا ثم اصبح رئيساً للطائفة الاسرائيلية بمصر . ولما كان يستهجن اتخاذ الواجبات الدينية وسيلة للكسب ، رأى اتخاذ التطبيب مورداً لرزقه

كان موسى بن ميمون في حياته الخاصة ، متواضعاً ، مجتهداً ، متفانياً في خدمة الانسانية . ويستدل على ذلك من الكتاب الذي ارسلهُ الى احد تلاميذه في سنة ١١٩٩ اي خمس سنين قبل وفاته حيث وصف عمله اليومي كما يلي : « ان واجباتي نحو السلطان ثقيلة جدًّا . ذلك لانني مضطر الى زيارته يوميًّا ، في الصباح المبكر ، فاذا مرض هو ، او احد اولاده ، او احدى سيدات الحرم ، لازمت القاهرة ، وبقيت الشطر الاكبر من النهار في السراي . وكثيراً ما يمرض واحد او اثنان من رجال الديوان ، فاظلُّ بجانبهما حتى يبرآ »

« والقاعدة العامة هي أن اذهب الى القاهرة في ساعة مبكرة من النهار ، وحتى في حالة عدم حدوث شيء غير عادي ، لا اعود الى الفسطاط ، الاّ ساعة العصر ، وانا اكاد اموت جوعاً . هناك اجد في حجرة الانتظار ، فوجاً من الناس ، يهوداً وغيرهم ، اشرافاً وعامة ، قضاة وحجاباً ، اصدقاء واعداء ، كلهم ينتظرون ساعة ايابي

« اقفز من مطيتي ، واغسل يدي ، ثم اذهب الى مرضاي ، وارجوهم ان ينتظروني حتى احتسي شيئاً من المرطبات ، وهو الطعام الوحيد الذي اتناوله خلال الاربع وعشرين ساعة . ثم اعود الى مرضاي واكتب لهم تذاكر الدواء ، والتعليمات الخاصة بالطعام . والمرضى يذهبون ويقدمون الى ساعة الغروب ، بل اؤكد لك انهم يستمرون واقفين الى ما بعد الغروب بساعتين او اكثر . اتحدث معهم واصف لهم الدواء وانا مضطجع من شدة التعب ، واذا ماجاء الليل ، امسيت منهوك القوى ، لا اكاد استطيع الكلام » .

وكان لا يلتقي بافراد الطائفة الاسرائيلية الاّ في يوم السبت ، حيث كان يقضيه في التعليم الديني ، والدرس ، والعبادة ، والصلاة . فكيف استطاع ان يحرر رسائله العديدة ، حتى أخريات ايام حياته ، دون الالتجاء الى كاتب سر ؟ . ثم كيف وجد وقتاً لانجاز مؤلفاته الفلسفية العديدة ؟ حقًّا انها لمعجزة ! قضى حياته عاملاً مجدًّا مجتهداً . وانتقل الى الرفيق الاعلى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٠٤ اي قبيل بلوغه السبعين

ليس من الميسور استعراض جميع نواحي حياة موسى بن ميمون ، فهي عديدة متشعبة . لقد استطاع وحده ، دون مساعدة اي انسان ، ان ينهض بثقافة اليهود وايمانهم . وكانت الخدمات التي اداها الى السلطان صلاح الدين ، بمثابة خدمات لشعبه ، اذ ضمن لليهود السلامة والامن ، في

البلاد الشاسعة التي امتد عليها سلطان صلاح الدين. والواقع ان اليهود تمتعوا بعد فتح صلاح الدين لمدينة القدس في سنة ١١٨٧ ، بحرية أوسع من تلك التي نالوها تحت حكم الصليبيين . اما الخدمات التي قام بها موسى نحو الانسانية فانها أجل شأناً . كان يعتقد ان هناك ثقافة عالمية تستطيع استخراج المبادىء الطيبة من جميع الاديان والحضارات . وقد بذل جهده في محاربة التعصب أيّاً كان مظهره. وفي المجادلات التي جرّ اليها رغم ارادته ، اتخذ موقفاً مملوءاً بالتعقل وانكار الشخصيات ، بل طالما تجنب ذكر خصومه باسمائهم

فلما وقع الشقاق بين يوسف بن عقنين — احد تلاميذ موسى المخلصين — وصموئيل بن علي ، رئيس المدرسة اليهودية ببغداد ، كتب موسى الى تلميذه ، يحذره من الوقوع في الجدل الشديد ، حيث قال له : « علّم ولا تسب ، تذكر انك أسأت الى هذا الرجل، وانك آذيته في اسباب معيشته . فكيف يمكن أن يتحمل المرء هذه الاساءة دون ان يشكو ؟ تذكر انهُ شيخ مسن ، وانهُ يشغل مقاماً محترماً ، وانك لا تزال شابّاً فيجدر بك ان تحترمهُ لمقامهِ وسنه »

ومما قالهُ موسى بن ميمون في « درجات الاحسان الثمان » ما يأتي: « ان ارفع درجات الاحسان ، وأحسنها جزاء هي السبق في الاحسان ، بمنع الفقر قبل وقوعه »

ليس من السهل الايجاز في تحليل فلسفة موسى بن ميمون . فهي لا تقل تشعباً عن فلسفة افلاطون ، وارسطو ، وكانت ، وهيجل . ولا تزال ثلاثة من درر تصانيفه باقية الى يومنا هذا . نذكر منها اولاً تفسيره لكتاب « المشناه » الذي بدأه ولم يتجاوز الثالثة والعشرين وانتهى من وضعه بعد عشر سنوات . و « المشناه » هي مجموعة الشرائع والسنن والتقاليد الدينية الاسرائيلية التي تناقلتها الاجيال ، عن طريق الحديث ، من وقت موسى الكليم ، ثم اضيفت اليها اقوال الحكماء ، المتناقلة عن طريق تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم . وقد استعرض موسى بن ميمون في تفسيره ، جميع انحاء الثقافة اليهودية . ومما قاله الدكتور موتز (Muntz) واضع تاريخ حياة موسى ابن ميمون ، ان كتاب تفسير « المشناه » ليس عمل رجل يهودي فحسب بل هو عمل احد العلماء العالميين . لانه استطاع ان يستند في ابحاثه الى نصوص علمية هذا نصوص التوراة . وقد لخص النقط الاولية لمبادئه في ١٣ مادة دعاها « اقوال التوراة » ولا يزال اليهود الى يومنا هذا يكررونها في الصلاة ويترنمون بها ترنماً رائعاً

وبعد اتمام كتاب « مشني توراة » ، شرع موسى بن ميمون في تبويب الشريعة الاسرائيلية وسننها وتقاليدها فانتهى منها في سنة ١١٨٠ بعد جهد دام عشر سنوات . وقد ظهر مؤلفه هذا في ١٤ جزءاً تشمل الف فصل . ويعد هذا الكتاب بمثابة المرآة التي تنعكس على صفحتها الصافية تفسيراته المنطقية وآراؤهُ الجلية

لكن موسى بن ميمون لم يدرك الغرض الذي كان يرمي اليه من هذا المصنف الاخير ، وهو

جعل الشريعة الاسرائيلية واضحة جلية ، في متناول كل انسان . ذلك لان الشروح والتفسيرات التي شملها كتاب « مشني توراة » لم يستطع فهمها الا المتبحرون في العلوم الدينية . ومع ذلك فقد اصبح بحثه ، في ما تلا من الايام ، اساساً للتطور الديني

واخيراً كتب موسى بن ميمون « دلالة الحائرين » وهو بحث لم يقتصر فيه المؤلف جهده على الفلسفة الاسرائيلية فحسب ، بل تجاوزها الى دراسة اسس الفلسفة العالمية . وقد بذل موسى قصارى جهده في سبيل التوفيق بين العلم والدين ، بين العقل والنقل . ونستطيع القول بأن موسى ابن ميمون قد نجح في تصوير الخالق عز وجل ، في صورة روحية ، ليس فيها شيء من المادة او الشكل ، في صورة القوة الكاملة التي لا يحدها حد ، والقادرة على كل شيء

ان تصوير الخالق عز وجل بهذه الصورة ، يوافق كل الموافقة العقيدة اليهودية من دون ان يتعارض مع التفكير العلمي . فقد قال موسى بن ميمون في وصف الله : اذا حاولنا مشاهدة عظمته اصيب نظرنا بنور ساطع يفقدنا قوة البصر ، واذا عمدنا الى تقدير قوته ، اصبح علمنا جهلاً ، واذا اجتهدنا في وصف حبه للانسانية ، تلعثم لساننا كلسان الاطفال »

اذا كانت تلك هي صفات الله ، فكيف يظل الشر موجوداً على وجه الارض ؟ وقد اجاب ابن ميمون على هذا السؤال قائلاً ان الشر ليس بالشيء القائم بذاته ، بل هو حالة عدم وجود الخير . وقد ذهب موسى الى مدى ابعد ، اذ اعتبر ان امراض النوع الانساني واحزانه ، ناتجة من الطبيعة ذاتها ، وان حالة النزع والموت هما الثمن الذي يدفعه المرء نظير تمتعه بالحياة ولولاهما لاصبحت الحياة امراً مستحيلاً

عمد موسى بن ميمون الى طرق التدليل اليونانية تارة ، والى المنطق الشائع في العصور الوسطى تارة ، حتى وصل الى اليقين والاستقرار . وقد بدا له الانسان مخلوقاً واهياً وعنصراً هامشياً في آن واحد . اذ مع صغر شأن المرء في الكون ، تراه هو وحده ، دون سواه ، فاهماً لاسرار الكون ملماً بوحدته . وهي النظرية الفلسفية القائمة حتى الآن

ان أثر موسى بن ميمون في الفلاسفة المسيحيين ثابت لا ينكر . فقد اخذ عنه كثيرون منهم امثال اسكندر اوف هيلس ، والبرت ماجنوس ، ودون سكوتوس ، وآكويناس . بل لقد كان أثر موسى بن ميمون عظيماً جداً في الفلسفة الحديثة ، بواسطة المفكر اليهودي سبينوزا . وهكذا اشترك في تكوين اجيال فلسفية جديدة ، لا تمت الى دينه بأية صلة

فلا غرو اذا احتفلت جميع الشعوب والاجناس بالذكرى المئوية الثامنة لمولده . ومن دواعي السرور حقاً ان تشترك الحكومة الاسبانية رسمياً في المهرجان الوطني الذي سيقام لاحياء ذكراه بمدينة قرطبة ، مسقط رأسه . ففي الوقت الذي طوى النسيان اعمال عمالقة التفتيش ما زال اسم موسى بن ميمون حياً في الاذهان